

تأملات في النفس

- ١ . الحسد.
- ٢ . تقدير الذات.
- ٣ . المنطق.
- ٤ . الترف.
- ٥ . الضحية.

الحسد

منذ القدم فطن الحكماء إلى أن مشاعر التعاطف مع مصاب إنسان آخر أسهل على النفس البشرية من مشاعر الفرح لنعمة نزلت به.

الكثير من الناس يجدون صعوبة في الاستبشار عندما يسمع خبراً ساراً للقريب أو صديق أو زميل، ويشترك السواد الأعظم من الجنس البشري في هذه المشاعر لحكمة وابتلاء من الخالق - عز وجل - هكذا تمت برمجتهم الذهنية، مع اختلافات بين البشر بحسب تربيتهم وثقافة مجتمعاتهم وجيناتهم أيضاً، وهذا لا يعني الاستسلام لهذه المشاعر واعتبارها أمراً طبيعياً، بل من المهم مجاهدة النفس على مغالبة ذلك الخاطر الرديء ودفعه.

والحسد حقيقة بشرية لا يمكن تجاهلها. وبحسب تعريفه البسيط، كما هو متداول في تراثنا العربي والإسلامي أنه: كراهية حصول المحسود على نعمة وتمني زوالها.

أما «وبستر دكشيري» فينقلنا إلى النظر من زاوية أخرى للحسد، حيث يعرفه بما يمكن أن يترجم بالآتي:

«الألم والامتعاض، حين تعلم بوصول منفعة إلى إنسان آخر مع رغبتك في الحصول على المنفعة نفسها».

لاحظ إضافته لتمني الحصول على المنفعة أو النعمة، في حين الرؤية في تراثنا تنصب مع الكراهية على تمني زوال تلك النعمة أو المنفعة.

شيخ الإسلام ابن تيمية يوسع دائرة الحسد بشكل أكبر، إذ يقرر أن الحسد: مجرد الكراهة والبغض، لما يرى من حسن حال المحسود، سواء تمنيت زوال النعمة، أم لم تتمن ذلك.

يجار كثير من الباحثين حول الفرق بين الحسد والغيرة، وإن كان الغالبية يعتقد أنها يتجهان إلى النتيجة نفسها، وإن كانت الغيرة ترتبط بشريحة النساء من حيث استخدام المفهوم في السياق الثقافي والمحيط الاجتماعي.

ويُعدّ الحسد من أعظم الخطايا البشرية وأقدمها وأكثرها تكديراً للسعادة للإنسان، بل إنها في حكم الإسلام كبيرة من كبائر الذنوب ومحبط من محبطات الأعمال.

وسنحاول في هذه التأملات التعرف إلى طبيعة الحسد أو «سيكولوجية الحسد» إن صح التعبير، وما الوظيفة التي يقوم بها هذا الشعور؟ وهل بالإمكان التخلص منه، أم لا؟

إن أول مشكلة تواجه المتأمل والباحث في هذا الموضوع هي النفور الشديد منه وصعوبة الشروع في حديث عنه، وكأن الناس لا تقبل حتى مناقشته أو التأليف فيه، وأعتقد أن مصدر ذلك يعود إلى أنه شعور يصعب تبريره.

فبينما يتحمل أحد الناس أن يوصف بالبخل، ويبرر ذلك على أنه تخطيط للمستقبل وحفظ لحقوق الأولاد أو بالجبن، ويبرره على أنه تعقل لتحقيق أهداف أبعد ورغبة في البقاء من أجل الآخرين، على الرغم من تهافت هذه التبريرات إلا أنه، أي الموصوف بالجبن أو البخل، لا يرضى مهما كان الثمن وصفه بالحسد أو أنه ذو عين حاسدة، وذلك لسبب بسيط جداً، وهو أن الحسد شعور لا يمكن تبريره، فكيف تفسر كراهية وصول نعمة إلى إنسان آخر؟ إنه شعور محير جداً.

ومن أبرز دلائل نفور المجتمعات من هذا الداء عدم وجود مرادفات لكلمة حسد، فعلى سبيل المثال كلمة حب (المقبولة للنفوس والمرغوبة من الجميع) تجد لها عشرات المرادفات، وإن كانت بدرجات مختلفة لنفس الشعور (هيام - غرام - ولع... إلخ)، أما الحسد فلا مرادف على الإطلاق، فقط يختلط مفهومه عند الناس بكلمة الغيرة.

وفي القرآن العظيم وردت هذه الكلمة في مرات قليلة نادرة قد لا يشار إليها هذه الندرة أي شعور إنساني آخر، أربع مرات فقط وردت فيها هذه الكلمة: مرتان في حق أهل الكتاب ومرة في الفلق؛ للاستعاذة من شر الحاسد إذا حسد.

وفي السنة النبوية كذلك لا تمر هذه الكلمة إلا لماماً، وفي إحدى المرات ذكرت بصيغة عجيبة، فقد خرَّج البخاري ومسلم حديثاً عن النبي ﷺ أنه يقول: (لا حسد إلا في اثنتين...) وهو حديث يحتاج إلى تأمل، فالمرء يستغرب من استخدام لفظة حسد وإباحته في هاتين الحالتين، وهو في الحقيقة يحتاج إلى تحليل لغوي، وربما تحليل ثقافي نفسي معمق، فتعريف الحسد هو كراهة وصول النعمة إلى المحسود، فكيف يستقيم المعنى هنا؟

أما في موروثنا العربي والإسلامي فلم يفرد كتاب خاص بالحسد فحسب ما توافر لدي من معلومات، بل يأتي ذكره في مواضع متفرقة أو رسائل متناثرة تأتي على سبيل الوعظ والتحذير منه وتبيان خطورته، وقد ركزت الأدبيات التي تبحث في هذا الموضوع على ربط الحسد بالعين ووسائل الحماية من ذلك والمعالجة عند الشك في وقوع هذا الأمر، ولعل استثثار الوعظ والتحذير من مغبة الحسد جاء على حساب البحث في طبيعة هذا الداء والوظيفة التي يؤديها، وسبيل معالجته في النفس المحسود التي نادراً ما يتم التطرق إليها، وتدور بقية المعالجات حول تبشيع هذا الصنيع ليس أكثر.

وسأعرض طائفة من أبرز آراء أئمة عصر التأليف الكلاسيكي في التراث الإسلامي:

في «إحياء علوم الدين» يوجه أبو حامد الغزالي نصيحة لمعالجة الحسد تتمثل في مدح المحسود والإحسان إليه وقسر النفس على ذلك.

وقبل ذلك يجمل أبو حامد مداخل الحسد في سبعة أبواب، كما يأتي:

«ومداخله كثيرة جداً، ولكن يحصر جملتها سبعة أبواب: العداوة، والكبر، والعجب، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة، وحب الرياسة، وخبث النفس، وبخلها».

ثم يضع أبو حامد اجتماع هذه الأسباب أو أكثرها أو أقلها مقياساً لمدى تعاضم الحسد أو خفوته في النفس، فيقول:

«وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد، فيعظم فيه الحسد بذلك، ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة، بل يتتهك حجاب المجاملة، وتظهر العداوة بالمشاهدة. وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب وقلما يتجرد سبب واحد منها».

ثم يغوص أبو حامد على طبيعة الحسد، فيعرض إلى السبب وراء: أن التحاسد لا يكون إلا بين الأمثال والأنداد:

«وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات، ويتواردون على الأغراض، فإذا خالف واحد منهم صاحبه في غرض من الأغراض نفر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد في قلبه، فعند ذلك يريد أن يستحقره، ويتكبر عليه، ويكافئه على مخالفته لغرضه ويكره تمكنه من النعمة التي توصله إلى أغراضه وتترادف جملة من هذه الأسباب، إذ لا رابطة بين شخصين في بلدين متناهيتين، فلا يكون بينهما محاسدة، وكذلك في محلتين نعم إذا تجاورا في مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد تواردا على مقاصد تتناقض فيها، أغراضهما، فيشور من التناقض التنافر والتباغض، ومنه تنور بقية أسباب الحسد، ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر... إلى أن قال - رحمه الله -: فأصل هذه المحاسدات العداوة، وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين، بل متناسبين، فلذلك يكثر الحسد بينهما».

ثم يدخل دخول الخبير على العلاج منطلقاً من حقيقة الحسد، حيث يقول:

«فقد عرفت أنه لا حسد إلا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل. ولهذا لا ترى

الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء،
ويتحاسدون على رؤية البساتين التي هي جزء
يسير من جملة الأرض، وكل الأرض لا وزن لها
بالإضافة إلى السماء، ولكن السماء لسعة الأقطار
وافية بجميع الأبصار، فلم يكن فيها تراحم ولا
تحاسد أصلاً. فعليك إن كنت بصيراً وعلى نفسك
مشفقاً أن تطلب نعمة لا زحمة فيها ولذة لا كدر
لها، ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله
-عز وجل- ومعرفة صفاته وأفعاله وعجائب
ملكوت السماوات والأرض. ولا ينال ذلك في
الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضاً».

ونختم هذه الإشارة المهمة من كلام أبي حامد:

«فكل من يجب إساءة مسلم فهو حاسد».

ابن رجب الحنبلي في كتابه النفيس «جامع العلوم والحكم» يحلل نفسية الحاسد، فيقول:

«الحسد يقتضي أن يكره الحاسد أن يفوقه أحد في
خير أو يساويه فيه؛ لأنه يجب أن يمتاز على الناس
بفضائله، وينفرد بها عنهم، والإيمان يقتضي
خلاف ذلك».

ويقول عن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِمُ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾:

«قد فسر ذلك بالحسد، وهو تمنى الرجل نفس ما أعطي أخوه من أهل ومال، وأن ينتقل ذلك إليه، وفسر بتمني ما هو ممتنع شرعاً أو قدرًا كتمني النساء أن يكنّ رجالاً أو يكون هن مثل ما للرجال من الفضائل الدينية كالجهاد، والدينية كالميراث والعقل والشهادة، ونحو ذلك».

أما ابن الجوزي فقد حاول تأمل طبيعة الحسد مخالفاً من ينعتهم بالمبالغين الذين يعتقدون أنه لا يحسد إلا شريك يعادي نعمة الله، ولا يرضى بقضائه، ويبخل على أخيه المسلم، فيقول:

«فرأيت في هذا، فما رأيت كما يقولون، وذلك أن الإنسان لا يجب أن يرتفع عليه أحد، فإذا رأى صديقه قد علا عليه تأثر هو، ولم يجب أن يرتفع عليه، وودّ لو لم ينل صديقه ما ينال أو أن ينال هو ما نال ذلك؛ لئلا يرتفع عليه، وهذا معجون في الطين ولا لوم على ذلك، إنما اللوم أن يعمل بمقتضاه من قول أو فعل».

وينقل ابن قدامة المقدسي في كتابه مختصر «منهاج القاصدين» فلسفة ابن سيرين - رحمه الله - عن الحسد، فيقول:

«... وقال ابن سيرين: ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا؛ لأنه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى الجنة، وإن كان من أهل النار، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى النار».

شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى يرشد الحاسد والمحسود إلى الواجب في حالهما؛ فيقول:

«ثم هذا الحسد، إن عمل بموجبه صاحبه كان ظالماً معتدياً مستحقاً للعقوبة إلا أن يتوب، وكان المحسود مظلوماً مأموراً بالصبر والتقوى، فيصبر على أذى الحاسد، ويعفو ويصفح عنه، كما قال تعالى: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فأعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره)».

ابن القيم - رحمه الله تعالى - يعدّ الحسد نوعاً من معاداة الله، فيقول:

«الحسد نوع من معاداة الله، فإن الحاسد يكره نعمة الله على عبده، وقد أحبها الله، ويجب زوالها عنه، والله يكره ذلك، فهو مضاد لله تعالى في قضائه ومحبته وكرهته».

ويفسر بكر بن عبدالله المزني الذنب الذي اقترفه الحاسد في لفظة تهكمية جميلة، فيقول:

«ذنبك عند الحاسد دوام نعمة الله - عز وجل - عليك».

ويشرح الحسن البصري كيف لا يضر الحسد، حين سأله سائل:

«أيحسد المؤمن؟ فقال: ما أنساك إخوة يوسف لا أبالك؟! ولكن عمه في صدرك، فإنه لا يضرك ما لم تعد به يداً أو لساناً».

طبيعة الحسد:

حاولت جاهداً أن أبحث عن طبيعة الحسد وأسباب نشوئه وهل من دور يؤديه؟، أي تلمس حكمة الباري - عز وجل - في ملازمته للنفس البشرية، والحقيقة أن المصادر التي تبحث في هذا الموضوع شحيحة، غير أنني هديت إلى موسوعة كبرى عن الحسد أنجزها عالم الاجتماع الألماني «هلمت شوك» ونشرها في كتاب تحت عنوان: (الحسد، نظرية في السلوك الإنساني) والكتاب لو ترجم إلى اللغة العربية، لأثرى المكتبة العربية في مثل هذا الموضوع، وهذا الكتاب الذي يقع في أزيد من (٤٠٠) صفحة ثري جداً بالمباحث حول موضوع الحسد، مثل: الحسد في اللغة، سيكولوجية الحسد، الحسد والعين، الجرائم المرتبطة بالحسد، الحسد بوصفه موضوعاً فلسفياً، ولم يغفل هذا العالم عن إجراء بحث في كتابه حول الحسد وأثره في السياسة.

وإن هناك فصلاً مشوقاً جداً حول مجتمع يوتوبي، وهو محاولة إحياء ما يشبه «الكيبوتر اليهودي» لخلق مجتمع خالٍ من الحسد.

يقول هلمت شوك:

«إن الظاهرة التي نصفها بكلمة حسد هي عملية سيكولوجية أساسية لافتراض أي وجود اجتماعي، (وجود اثنين أو أكثر من الناس...)».

من أجهل التفسيرات التي أوردها هذا العالم لحكمة الحسد هو تشبيه الحسد على المستوى النفسي بالجاذبية الأرضية على المستوى المادي.

الحسد على مستوى المجتمع ينظم تصرفات الأفراد، ويربطها بمرجعية معينة، تشبه تنظيم الجاذبية لحركة المادة على كوكب الأرض.

وأثبتت البحوث، أن الحسد غائر في أعماق المجتمعات البشرية، حيث دلت استكشافات القبائل البدائية في البرازيل وإفريقيا على وجود درجات عالية من الحسد، ويمكن أن نستفيد من معلومة مهمة في هذا الخصوص، وهي أن الحسد في المجتمعات سريعة التحول أكثر انتشاراً من المجتمعات المستقرة، ويؤيد هذه الحقيقة اعتقاد سائد وشائع بين العامة الآن، أن الناس أصبحوا أكثر حسداً من قبل، فإن صححت هذه النظرة الاجتماعية فهي تعزز اعتقاد الناس، حيث أدت الطفرات الاقتصادية المتوالية والاختراقات الطبقيّة إلى ارتفاع شديد في وتيرة الحسد وضراوة هذا الشعور.

الحسد سيظل موجوداً ما بقي اثنان من بني آدم على هذه الأرض، فنحن نعرف الآن أن وظيفة الحسد جزء من حكمة الباري لا بتلائمنا به، غير أن هناك كثيراً من الإدراكات التي لو صححت لخففت من هذا الشعور، سواء في شدته أو تكراره، إن من أهم الإدراكات التي يلزم تصحيحها هو أن هوية الإنسان وقيمه يجب أن تنفك عن إنجازاته وممتلكاته، لا شيء يثير الحسد من وجهة نظري مثل الشعور بالدونية،

ومبعث الشعور بالدونية هو المقارنات، وقد وقع الإنسان في فخ المقارنات منذ وجد على هذه الأرض، فقد حسد قابيل هابيل؛ لأنه قارن بين مدى قبول الرب -عز وجل- لقربان هابيل وعدم قبول قربانه.

وقد اطلعت على كتاب للقس الأمريكي «بوب سورج» عنوانه: «الحسد العدو الداخلي»، وأثار دهشتي إلى أي مدى يعيش القساوسة في بلد كالولايات المتحدة الأمريكية هاجس الحسد، يستشهد هذا القس بمقالات عدة لربط أحداث ٩/١١ بالحسد، وقد أورد عدداً من عبارات الكنديين والروس واحتفال بعض المسلمين بالأحداث بوصفها دليلاً على وجود الحسد بوصفه سبباً لهذه الأحداث بحسب ظنه، ويذهب هذا القس بعيداً في تحليلاته إلى درجة يربط فيها الصراع الراهن في الشرق الأوسط بين العرب والإسرائيليين، بحسد مزعوم بين إسحاق وإسماعيل عليهما السلام، قبل أربعة آلاف سنة، ويخلص هذا القس في تحليله إلى أنه مهما كانت الأمور فإن الشيء الواضح له هو أن العالم مليء بالحسد.

ويؤكد القس بوب سورج أن طاقات الحسد تتولد من قلب مليء بتحقيق الذات والطموحات الشخصية، ويعتقد أن الحسد وتحقيق الذات يضل كل منهما الآخر.

ويشير أيضاً هذا القس بشيء من الدقة إلى أن مما يثير الفضول أن الحسد يتبع الخطوط الجندرية (الجنسوية) وهو محق في ذلك إلى حد كبير، حيث يحسد الرجال الرجال والنساء النساء.

ويلحظ هذا القس إحدى أوضح خصائص الحسد، وهي التخفي، حيث دائماً ما يقدم أو يظهر الحسد نفسه في أشكال مختلفة، وقد يجهل لأنه يتلبس ببعض المشاعر النبيلة كإسداء النصيح.

ويستشهد هذا القس بنصوص من الكتاب المقدس بوصفها وسائل لعلاج الحسد وأهمها حقيقة ما ورد على لسان كلوسينياس بأن تيرمج ذهنك على الالتفات إلى الأشياء العلوية، ولا تنظر إلى الأشياء الأرضية وبحسب هذا القس، فكلما ارتفعت أهدافك إلى السماء انحسرت المنافسة، وانعدمت مساحة تحقيق الذات، ومن ثم ينعدم الحسد. تأمل تشابه رأيه إلى حد التطابق مع أبي حامد العزالي، ويضع هذا القس قاعدتين للأهداف: إحداهما تنتمي للعالم الأرضي، والأخرى تنتمي للعالم العلوي، حيث لا منافسة ولا حسد.

ومن أجهل ما يقدمه هذا القس من نصائح هو رأيه عن الهوية، فيقول بما يمكن ترجمته على النحو الآتي:

«خلقنا الله، ولدينا حاجة لنعرف من نحن والسعي لمعرفة هويتنا ليس ذنباً، ولكن الطريقة التي نسعى بها إلى ذلك قد تكون ذنباً، إن الحصول على هوية من الأشياء التي نعملها أو الأشياء التي نملكها لن تملأ الفراغ الروحي الذي نحس به، والشيء الوحيد الذي سيشبع حاجتنا هو الارتباط بمحبة خالقنا».

كلفني أحد الأصدقاء، بإحضار مجموعة مترجمة من مشروع الترجمة المصري في أثناء وجودي بالقاهرة عام ١٤٢٢ هـ، وعندها لفت انتباهي عنوان مثير عن الحسد عند الإغريق، وقد تبين لي بعد الاطلاع على الكتاب، أن هناك تشابهاً بين الراعي الجركسي في جبال أثينا قبل (٣٠٠٠) سنة وأعرابي الصحراء في الجزيرة العربية في زماننا الراهن، فكلاهما لا يسعده أن تمدح غنمه، وإن شك في نظراتك بصق ثلاث مرات، وما إلى ذلك، وهذه بعض الاقتباسات من كتاب الحسد عند الإغريق:

«ويرى الإنسان الجركسي أن البشر ليسوا متساوين، مثل أصابع اليدين، والأشخاص الأقل حظاً والأقل شرفاً يحسدون من يفوقونهم حظاً وشرفاً. وسوف يقودهم الحسد إلى الخديعة والمكر بشكل مباشر».

«... إن قوة العين الحسود تكمن في جذب الأشياء المحسودة. ومن المهم أن الأطفال والقطيع، وهما أهم ركنين في المكنة الاجتماعية للإنسان، كانا أكثر الأشياء عرضة للهجوم. إن الرجال الناجحين، وبصفة خاصة الناجحين للغاية، هم المعرضون للخطر. ومن الأمور التي لا تسعد الرجل الجركسي أن يقال له: إن قطع أغنامه في حالة ممتازة. فمن المعتقد أن المدح والإعجاب يشيران إلى رغبة المعجب، حتى لو كانت غير معتمدة لامتلاك الأشياء التي ترى عيناه أنها جميلة، وحيث إن امتلاكها مستحيل، فإن الحسد يلي الشعور بالإحباط. وحيث إن العين الحسود قد تحسد بطريقة غير متعمدة، فإنه ما من إنسان يكون متأكداً من أنه قد يؤثر في وقت من الأوقات في الناس الآخرين أو في ممتلكاتهم أو حتى في نفسه. ويضيف كامبل أن البصق ثلاث مرات على الشخص أو الشيء الذي يثير إعجاب المرء هو إجراء احتياطي فعال ضد الحسد».

«... الشخص المؤمن بالخزعبلات يبصق إذا ما رأى رجلاً مجنوناً أو مصاباً بالصرع. إن الاحتياطات التي يقوم بها المرء ضد عين الحسود أمر مسلم به، مثلها مثل الإيمان بالعين الحسود نفسها، وعلى الرغم من تقدم التعليم وتزايد الرخاء فإن المعتقدات والممارسات المتعلقة بالسحر مستمرة...».

الحسد وعلم الاجتماع:

علماء الاجتماع يعولون على قانون الندرة؛ لكونه سبب نشوء الحسد في المجتمعات البشرية، فإدام أن هناك قدراً محدوداً من أي بضاعة أو مادة فإن الشعور بالحسد سيكون طبيعياً عند الحصول على قدر من هذه البضاعة، حيث إن ذلك سيكون على حساب الآخر.

وعلى هذا الأساس، فإننا لا بد أن نستنتج إن صحت تحليلات علماء الاجتماع أن الحسد سيزداد كلما قلت الموارد، وهو ما تؤيده المشاهدة، ولا نملك معلومات بحثية تطبيقية تدعم هذا الاستنتاج.

وبلاحظ هلموت شوك:

«وقد بشرت الماركسية بمجتمع خالٍ من الحسد، عندما يسود توزيع متساوٍ للموارد بين الناس، ويبدو عسيراً على أي متأمل أن يلاحظ أن المجتمعات التي حاولت تطبيق النظريات الشيوعية قد استطاعت أن تحل مشكلة الحسد^(١)».

(١) هلمت شوك: ص ٥

الحسد يظهر بين الأشخاص المتساوين أو شبه المتساوين، ولكن هذا لا يتعارض مع فكرة أن المساواة تزيل مشاعر الحسد، وأن الأشخاص المتساوين الذين يتعرضون لحسد أقرانهم ليسوا متساوين بالمعنى المطلق للكلمة، وإلا ما أثاروا حسد زملائهم، فقد كانت الديمقراطية تمنح للمواطنين درجة جزئية من المساواة وبمرور الوقت شجعت المساواة السياسية على المطالبة بمساواة في الفرصة ومساواة في الملكية، فإن ذلك الاتجاه يصبح مداناً سياسياً، وأن يطالب معارضوه، كما يحدث اليوم، بتسمية إحدى الفئات المنشقة باسم «سياسات الحسد» في حين يطلقون على الاتجاه الآخر اسم «العدالة الاجتماعية».

الحسد وعلم النفس:

أما علماء النفس فيرجع بعضهم منشأ الحسد إلى مرحلة الطفولة بين الأقران، وأن السبب في ارتباط الحسد بالعنصر البشري هو طول مرحلة الطفولة، وتنمي المنافسة هذا الشعور، وتدعمها الطموحات لتحقيق الذات.

ويرتبط الحسد ارتباطاً وثيقاً بالمقارنات، حيث ينزع كل إنسان إلى أن ينظر إلى ما عنده من نعم، ويقارنها بما عند الآخرين، وقد عبرت حكيمة فرنسية عن هذا بقولها:

«إن الناس لا يهتمهم أن يكونوا أغنياء، وإنما يهتمهم أن يكونوا أغنى من غيرهم».

كيف يقع الإنسان في مأزق المقارنات؟ وهل له مصلحة في ذلك؟ يجيب بعض علماء النفس عن ذلك مرجعاً السبب إلى حالة الطفولة، حيث وجد الإنسان لذة عندما وجد نفسه أفضل من غيره في أحد الجوانب، ومن ثم أدمن على هذا التصرف؛ لعله يجد تلك اللذة، ويسمونه الدعم الإيجابي لهذا التصرف، ويعبر الدكتور ماثيو ماكي عن ذلك في كتابه «تقدير الذات» بقوله:

«إن معظم جهود مقارنة نفسك بالآخرين تجعلك تشعر بأنك أقل كفاءة، ولكن تلك المرات التي تكون لها مردود، وتحصل لها على الدعم، حيث تبدو الأفضل بالمقارنة تجعلك عالقاً في عادة المقارنة تلك».

وقد وصلنا هدي المصطفى ﷺ حول المقارنات في تقرير نبوي بظهور المقارنات في المشهد الإنساني، فالإسلام لا يقفز على الحقائق إزاء المشكلات، بل يعترف بها بشكل عقلائي، ويضع جملة من العلاجات المتكاملة للمشكلات، وقد تجسد هذا النهج على سبيل المثال في حديث أبي ذر رضي الله عنه: «انظر إلى من هو تحتك، ولا تنظر إلى من هو فوقك، فإنه أجدر ألا تزدرى نعمة الله عندك». والرسول ﷺ وهو الذي لا ينطق عن الهوى يدرك مدى التصاق النفس البشرية بالمقارنات، فهي في الواقع ثمن ونتيجة طبيعية لحياة الإنسان الاجتماعية، غير أن من المهم أن ندرك حجم التأثير السلبي للإفراط في المقارنات، حيث إنه في كل شأن من شؤون الحياة ستجد من هو أفضل منك، ومن ثم سيصاحبك غم لا ينقطع.

إن تعزيز فردية الإنسان مهم جداً لوضع المقارنات في حدها الأدنى، ذكر نفسك دائماً بأنك مخلوق لله خلقتك - عز وجل - متفرداً جسداً وروحاً، لا تشبه أحداً أبداً، ولا يشبهك أحد أبداً، حياتك مثل بصمتك ليس لها مثل.

أظهر استطلاع طريف أن نصف الألمان يعتقدون أنهم يعيشون في مجتمع يتميز «بالحسد والغيرة» وبلغت النسبة في شرق البلاد ٥٧٪. وقالت نسبة ٣٣٪ من الألمان: إن النساء أكثر حسداً وغيرة من الرجال، وأيدت ذلك نسبة ٤٦٪ من النساء، فيما اعتبرت نسبة ستة في المئة أن الرجال أكثر حسداً.

خطوات لمواجهة شعور الحسد:

في ضوء تأملاتي عن الحسد وظهوره في الخريطة البشرية، رأيت أنه من المفيد وضع خطوات عملية من شأنها تقليل هوامش الحسد وتضييق دوائره على المستوى الفردي والجماعي، وتتمثل تلك الخطوات في الآتي:

١. تجنب الفضول الاجتماعي؛ فهو الباب الأوسع لتسلل مشاعر الحسد،

لا ترخ سمعك لمن يتحدث عن الناس دون فائدة.

٢. اضبط الخلطة عند حدها المفيد.

٣. عندما تتسلل إلى عقلك مشاعر الحسد، حال سماعك خبراً عن وصول

نعمة إلى أحد من الناس "غالباً سيكون قريباً منك" بادر إلى تصحيح

إدراكات العقل الحاسد على النحو الآتي:

- إن هذه هي قسمة الله تعالى بين خلقه، وحكمته تامة

وعلمه كامل، فارض بقضاء الله وقدره، واعلم أنه

أرحم بعباده من أنفسهم.

- الشخص الذي وصلت إليه هذه النعمة لا ينظر إليك

بدونية أو انتقاص؛ لأن هذه النعمة لم تصل إليك.

- تقديرك لحجم هذه النعمة يختلف عن حجم تقدير

المتلقي لها، ولو وصلت إليك لكنت أقل قدراً مما تظن.

- إن النعم تتناقص قيمتها مع مرور الوقت.

- نعم الله لا تحصى، ولا يمكن الإحاطة بها، فإن كان

قد وصل إلى أحد من الناس نعمة لم تصلك، تحسده

عليها، فتذكر حجم النعم التي لديك، ولم تصل إلى

ذلك الشخص، وما دفعه الله عنك من النقم، وهذا يحد

ذاته نعمة.

- إنك لا تعلم ما فقد ذلك الشخص الذي تحسده من

النعم التي لديك.

٤. عندما تفقد نعمة ما، فقد تكون هذه النعمة (المفقودة) هي الحارس

الأمين لبقية النعم.

٥. تذكر أن الحسد أشبه ما يكون بالاستدراك على مشيئة الله وحكمته

في قسمة فضله ورحمته والله - عز وجل - يقول: ﴿لَمَحْنُ قَسْمًا بَيْنَهُمْ

مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. فإذا كان الرؤساء من البشر في الحياة الدنيا

يمقتون من يعترض على قراراتهم أو طريقة إدارتهم للموارد (ولله المثل

الأعلى) فكيف نجروا على الامتناع من إرادة الحكيم العليم!؟

٦. وتذكر أيضاً أن الحسد هيب يحرق صاحبه، نفسياً ودينيًا، واسترجع

حقيقة أن الإسلام شرع لنا نهجاً إنسانياً فطرياً راقياً، وهو «الغبطة» التي

تعني استحسان ما لدى الآخرين وتمني تحصيله دون الرغبة في زواله.

بقي موضع تأمل أختتم به هذا الفصل، وهو قول الله تعالى في سورة الفلق: ﴿وَمِن

شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. إلا يمكن لنا أن نفهم من هذا الاستدراك القرآني العظيم في

الاستعاذة من الحاسد بإضافة إذا حسد بأن هناك مرحلتين، فليس كل حاسد يحسد،

فقد يكون من طبع الإنسان أنه حاسد، ولكنه لا يحسد، وربما نستطيع إرجاع هذا

الفهم إلى علم النفس لنقول: إن التصرفات البشرية تدور حول ثلاث مراحل:

١- الإدراك.

٢- ثم الاستجابة وتشكل الاتجاهات.

٣- ثم النزوع السلوكي.

بمعنى أنه إذا توقف الإنسان قبل مرحلة النزوع، وتشكل الاتجاهات الحسدية، فقد يكون معفى من ذنب الحسد، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، خصوصاً أن ذلك يتطلب مجاهدة للنفس، ومن ثم فلا تستبعد حصول الإنسان على ثواب نظير مدافعة الخواطر الرديئة ذات العلاقة بالحسد. أما غياب المجاهدة في النفس، فإنه قد ينقل الإنسان إلى أن يتصرف للتأثير في وصول نعمة ما إلى المحسود، وهنا الإشكالية الكبرى.

تقدير الذات

تسير بسيارتك في أحد الشوارع خلف سائق غير مبالٍ يغير المسار الذي يسير فيه دون سابق إنذار، ويتباطأ بشكل شديد بصورة مفاجئة، ولا يلتزم بقواعد المرور، فتستشيط غضباً، وتتمنى أن تبطش بهذا السائق، ثم تحين فرصة لك لتجاوزه، وعندما تتجاوزه تجده رجلاً طاعناً في السن يمسك المقود بكلتا يديه معه عجوزه، ويتطلعان يمنة ويسرة بذهول، كأنهما يبحثان عن شيء مفقود، فتتفرج أساريرك، وتخف حدة الغضب عندك بشكل مفاجئ! ما الذي أغضبك في البدء؟ وما الذي أزال عنك الغضب أخيراً؟

تنتظر أحد الناس الذين ضربوا لك موعداً، وتأخر عن مواعده، تغضب بشدة، وتبدأ تنظر في الساعة، ثم يحضر، وإذا به قد تعطل بحادث مروري تتضح علاماته على سيارته، فيهبط مؤشر الغضب إلى أدنى مستوياته، وتتفرج أساريرك، وتهدأ صولة الحق لديك! ما الذي ألهب غضبك ابتداءً؟ وما الذي أطفأه انتهاءً؟

في مجموعة من الزملاء تقص عليهم حكاية غير مهمة، وفي منتصف الحديث قاطعك أحدهم، وبدأ يسأل خارج نطاق الحكاية، ثم بعد أن استأنفت الكلام، كرر المسلك نفسه سواءً بالتشاغل عن حديثك أو بالحديث مع الآخرين وإشغالهم عن الإنصات، الغالبية العظمى من الناس تغضب كثيراً إذا مر بها هذا الموقف، بل هناك أحداث موثقة في أدبيات تطوير الشخصية تتحدث عن حادثة قتل ارتكبت في حق زوجة انصرفت، وزوجها يتحدث إليها في موضوع ما.

هل من قاسم مشترك يجمع الأمثلة الثلاثة أنفة الذكر؟

بزعمنا، أن نعم.

فالسائق غير المبالي والصديق الذي تأخر عن مواعده، والزميل الذي يتشاغل عن الإنصات إليك كلهم يوجهون رسالة ذات معنى واحد، مفادها: أنك غير مهم أو أنه لا يجب أن يكثر بك، وهذا ما يفسره أو يفهمه عقلك الباطن، وليس بالضرورة هو مقصد الأشخاص في الأمثلة الثلاثة.

الغالبية العظمى من الناس تحول هذه الرسالة إلى رسالة شخصية (من الإنسان لنفسه) مسببة هبوطاً في تقديره لذاته، وقد يكون أحد الأدلة القوية على هذا الاستنتاج هو أنك في المثال الأول قد ارتحت كثيراً عندما نظرت إلى السائق وصفته، وكذلك زال غضبك عندما علمت عن سبب تأخر الزميل أو الصديق.

أما الإنصات فأهميته الكبرى ليست في استيعاب ما يقوله المرسل فقط، وإنما في الرسالة المرتدة التي يتلقاها المتحدث، وهي أنه شخص مهم، ومن ثم يرتفع تقديره لذاته، مهارة الإنصات واحدة من أهم مهارات القادة إن لم تكن الأهم، كما تؤكد أديبات القيادة.

يعول علماء النفس الإكلينيكي كثيراً على تقدير الذات؛ لأهميته في حياة الإنسان، بل إن كثيراً من الكتب تتحدث عن تقدير الذات بوصفه بنية تحتية للصحة النفسية والسعادة وعملاً مهماً لتحقيق أهداف الإنسان في الحياة.

باختصار تقدير الذات هو القيمة التي تعطىها لنفسك، وهذا يشبه إلى حد كبير مؤشر الأسهم في الأسواق المالية، فكما أن بعض الشركات تكون ذات طابع مستقر، ومن ثم فهي ثابتة وقوية، ولا تهتز كثيراً باضطرابات الأسواق، فإن هناك شركات أخرى شديدة الاضطراب والتأثر بالأخبار والتحويلات في الأسواق، غير أن الظاهرة الواضحة أنه ليس هناك شركة بمنأى عن التأثر قليلاً أو كثيراً.

تقدير الذات يشبه إلى حد كبير هذا المفهوم، فالآمنون الواثقون لا يتأثر تقديرهم لذاتهم كثيراً بإنجازاتهم أو بكلام الناس عنهم، في حين يضطرب بعضهم، وتفقد

ذاته قيمتها لمجرد سماعه نقداً جارحاً أو عجزه عن الوصول إلى هدف، ويرتفع فجأة تقديره لذاته عندما يسمع مديحاً أو يحقق هدفاً عابراً.

ما طبيعة تقدير الذات؟

وهل يمكن قياسه؟

وهل يولد الإنسان واثقاً من نفسه، مقدر لذاته محبباً لها، ثم تتناقص هذه المحبة وهذا التقدير مع الاحتكاك بالحياة، أم أن العكس هو الصحيح؟ حيث يولد الإنسان غير آمن وغير واثق، ويبدأ ببناء الثقة، ويقدر ذاته مع مرور الأيام والاحتكاك بمحيطه؟ بحسب كثير من الكتب والمراجع العلمية، فإن الإجابة عن التساؤلات فيما سبق غير محددة بشكل قطعي مثل أي ظاهرة تخص النفس البشرية.

فيما يأتي قائمة (check list) طورها الدكتور بريان رويت، ونشرها في كتابه الثقة لتكون أنت (the confidence to be you):

الواثقون:

- ١- يؤمنون بأنفسهم، وبما يعملون، وسيطرون على حياتهم.
- ٢- يتقبلون المسؤولية عن تصرفاتهم.
- ٣- متزنون في سلوكهم ومواقفهم وتوقعاتهم للمستقبل.
- ٤- لديهم المرونة تجاه الناس والمواقف التي يتعرضون لها.
- ٥- حوارهم الداخلي (حوار النفس) إيجابي وحنٍ ومدعم.
- ٦- لا تسيّر حياتهم الواجبات.
- ٧- يتعلمون من أخطائهم، ويرون أن التجارب مساعدة لهم على التميز والتطوير.
- ٨- يقيّمون أنفسهم بواقعية.

- ٩- يؤكدون على احتياجاتهم دون عدوانية.
- ١٠- يتحدثون بهدوء وبوتيرة مقبولة.
- ١١- واقعيون وصادقون في آرائهم ومناقشاتهم.
- ١٢- لا ينجلون من إظهار معتقداتهم وآرائهم.
- ١٣- لغة الجسد عندهم تعكس الثقة التي يشعرون بها.
- ١٤- ليسوا في حاجة إلى النقد المستمر وإصدار الأحكام حتى يقللوا من قيمة الأنا عندهم (إرضاء غرورهم).
- ١٥- ينصتون بإخلاص، ولا يهتمون كثيراً بما يعتقدونه الناس عنهم.
- ١٦- يقبلون أنفسهم كما هي دون النظر للإنجازات والإخفاقات.
- ١٧- عندما تسنح لهم فرصة جوابهم (لم لا) وليس لماذا.
- ١٨- يرون الحياة سلسلة من التحديات.
- ١٩- إذا سألوا أي حيوان يمثلون؟ فقد يكون جوابهم الحصان أو الغوريلا.
- ٢٠- يقبلون النقد بوصفه شيئاً طبيعياً في الحياة.
- ٢١- يواجهون بأعينهم من يتحدثون معه أو يتحدثهم.
- ٢٢- يسمون التعامل مع الناس (تفاوض).
- ٢٣- يؤمنون بقدرتهم على التأثير في الأوضاع الراهنة.

غير الآمنين:

- ١- تعكس لغة الجسد عندهم نقص الثقة.
- ٢- حديثهم، إما بلين مبالغ فيه وتمتمة أو مرتفع جداً.
- ٣- يتحدثون بسرعة وبنبهة حادة.
- ٤- يحتاجون إلى إلغاء آراء الآخرين أو الهيمنة عليهم حتى يقنعوا أنفسهم، وربما الآخرين بأنهم مقبولون.

- ٥- لا يصغون بشكل جيد، ويقاطعون المتحدث كثيراً؛ لكسب الاهتمام.
- ٦- يحتاجون إلى المحبة والقبول، ويخافون من الرفض.
- ٧- يتكثرون كثيراً على مساندة الآخرين وقبولهم.
- ٨- الشعور بالذنب والخوف من الفشل يؤدي دوراً كبيراً في حياتهم.
- ٩- يستعملون (تفادي الأشياء - التهرب) أسلوباً أساسياً لتجنب الأخطاء التي ينظرون إليها على أنها فشل.
- ١٠- يهتمون جداً بنظرة الآخرين لهم.
- ١١- قلقون جداً ويهتمون بالنتائج والنقد المترتب عليها.
- ١٢- حوارهم الداخلي (حديث النفس) مليء بالشكوك والانتقادات والخوف والكلمات السلبية.
- ١٣- يرون الحياة سلسلة من المشكلات.
- ١٤- فلسفتهم (لا تدخل في السباق؛ فربما تخسر).
- ١٥- إذا سئلوا عن الحيوان الذي يمثلونه؟ قالوا: الأرنب أو الفأرة.
- ١٦- لديهم إيمان قليل جداً بأنفسهم بوصفهم أشخاصاً، ولا يثمنون قدراتهم، ويقللون منها.
- ١٧- يقارنون أنفسهم بالآخرين بشكل يجعلهم مفضولين.
- ١٨- يستخدمون الأسئلة بوصفها جزءاً من محادثاتهم (الأسئلة التي تتضمن تردداً).
- ١٩- يتوقعون الانتقاد، ويستخدمون كلمة آسف كثيراً.
- ٢٠- لديهم شكوك حول أنفسهم وقدراتهم ورأي الآخرين عنهم.
- ٢١- لا يسمعون بما يقال لهم إلا اللوم والنقد؛ لأن هذا يتوافق مع حديث أنفسهم.
- ٢٢- ربما يستخدمون الاعتداء وسيلة للدفاع عن النفس.

- ٢٣- يشعرون بالخجل، وينسحبون من الاجتماعات، ويخافون مقابلة الناس الجدد.
- ٢٤- يخافون من الذهاب للمناسبات، ويخشون أن تسلط عليهم الأضواء أو يقدموا أحاديث عامة.
- ٢٥- ينظرون إلى المستمعين بوصفهم عدواً ينتظر فرصة مواتية لتحطيمهم بالنقد.
- ٢٦- يشعرون بالأمان مع الاستقرار، والتغيير بالنسبة إليهم مشكلة.
- ٢٧- تتحرك عيونهم عند المحادثة، وينظرون إلى أي شيء سوى الشخص الذي يتحدث معهم.
- ٢٨- ينظرون إلى التعامل مع الآخرين بوصفه مواجهة، ويتوقعون أنهم الطرف الخاسر.
- ٢٩- سلبيون يؤمنون بأنهم فاقدو القدرة والتحكم، وأنهم ضحايا لأي معاملة.
- ٣٠- يواجهون صعوبة كبيرة، عندما يكونون غير محصنين.

يصعب أن نجد شخصاً فيه جميع صفات الواثقين، وليس به أي صفة من صفات غير الواثقين (أو غير الآمنين) أو العكس، فقد اقتضت حكمة المولى -عز وجل- أن يكون في كل واحد منا مجموعة من هذه ومجموعة من تلك، إلا أن بعض الأشخاص يغلب عليهم صفات فقدان الثقة وبعضهم الآخر يغلب عليه صفات الثقة.

والسؤال المهم الآن إذا صدق الإنسان مع نفسه، وعرف أنه يعاني نقصاً في تقديره لذاته، فكيف يستطيع بناءها بشكل جيد، وهل هذا ممكن؟ فالشعور بالثقة والأمان ثروة مهمة للسير في هذه الحياة.

هناك نظرية مقبولة عند علماء النفس، هي أن «الطريقة التي تفكر بها هي الطريقة التي تشعر بها» والمفرح والمطمئن أننا نستطيع أن نغير من الطريقة التي نفكر بها، ومن ثم نستطيع أن نحسن شعورنا.

لا أعتقد أن هناك شيئاً يمنح الإنسان الثقة والأمان مثل الإيمان العميق الصادق بالرب - عز وجل - بقدرته وحكمته ورحمته بخلقه وقيوميته وخزائنه التي لا تنفذ. يضرب الشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمه الله - مثلاً بسيطاً، حيث يقول:

«تصور أن شاباً هو ابن لثري كبير كيف سينظر إلى مستقبله؟ لا شك أن لديه شعوراً بالأمان والثقة، ألا يستحي من له رب غني كريم أن يقلق أو يخشى؟».

عندما نشعر بشيء سيئ، فهناك تفكير سيئ خلف هذا الشعور، وهذا التفكير غالباً ما يكون ناتجاً عن اضطرابات في الإدراك (بحسب النظرية الإدراكية). وقد أعد المعالجون النفسيون قائمة بهذه الاضطرابات، وهي:

- ١- التفكير الحدي: إما كل شيء أو لا شيء (أسود أو أبيض).
- ٢- التعميم المبالغ فيه: خسارة صفقة مثلاً تعني أنك خاسر دائماً.
- ٣- الفلترة (الترشيح): النظر فقط للأشياء السلبية.
- ٤- قراءة الأفكار: القراءة السلبية لردود أفعال الآخرين على الرغم من عدم وجود دليل.
- ٥- اللوم: إلقاء اللوم المستمر على النفس.
- ٦- الشخصية: ربط كل شيء بشخصك أو بالأشخاص الآخرين، ومن ذلك اعتقاد أنك المقصود في أي تعليق أو حدث.
- ٧- التفكير العاطفي: دون أسباب عقلانية يتأرجح الإنسان بين تفاؤل مفرط وتشاؤم مفرط.

٨- التوسيم: بدل أن تقول: خسرت هذه المرة، تقول لنفسك: أنا خاسر .
 هناك كثير من الآليات لمساعدة الإنسان للتغلب على هذه الاضطرابات، أو
 الانحرافات في الإدراك التي تؤدي إلى الشعور السيئ، وتهاجم تقدير الذات وثقة
 الإنسان بنفسه.

يحمل علماء النفس السنوات الأولى من عمر الإنسان مسؤولية كبيرة عن رصيده
 من تقدير الذات والثقة بالنفس، وتسير المعادلة كآلآتي: عندما يولد الإنسان، ويبدأ
 بإدراك ما حوله، فإن كان أبواه يغمرانه بالحب غير المشروط (لا يرتبط بالسلوك)
 وبصوران له العالم من حوله بوصفه مكاناً آمناً، ولا يمطرانه بالتقدي عند أي إخفاق،
 فالغالب أن ينشأ واثقاً من نفسه محباً لها مقدرًا لذاته، والعكس صحيح.

غير أن هناك دلائل عدّة أهمها البحوث التي أجريت على توائم متطابقين
 انفصلوا منذ الولادة، وتربوا في عائلات مختلفة، هذه الدلائل تشير إلى الإرث الجيني
 وأثره في تقدير الذات، بمعنى أن جزءاً من تقديرك لذاتك قد ورثته جينياً لا سبيل
 إلى تغييره.

وإن هناك جدلاً حول أيهما أسبق، الإنجازات أم تقدير الذات؟ بمعنى هل يزيد
 تقديرك لذاتك عندما تحقق إنجازاً أم أنك تحقق إنجازات لأن تقديرك لذاتك مرتفع،
 والجواب الأقرب للحقيقة هو أن المسألة تسير في الاتجاهين، فكل اتجاه يغذي الآخر.
 كثير من الناس يربط تصاعدياً بين الثراء وتحقيق الذات، ويسود اعتقاد بأن
 شديدي الثراء يتمتعون بالضرورة بمستوى أعلى من تقدير الذات وتحقيق الذات عن
 باقي الناس. غير أن بحوثاً أجريت لدراسة أثر الثراء الكثير في تقدير الذات، فلم تجد
 له أثراً يوازي أثر التعليم.

أهم مظاهر تقدير الذات، انخفاضاً وارتفاعاً، وأهمها في أثرها البعيد في حياة
 الإنسان أربعة:

١. الموقف من النقد:

فالوائق لديه إستراتيجية مختلفة عن غير الواثق في التفاعل مع النقد تركز هذه الإستراتيجية على اختلاف الإدراك بين الطرفين أو بين الشخصيتين، فالوائق يحثه إدراكه إلى أن المستهدف من النقد هو عمله أو تصرفه أو سلوكه، وليس ذاته، وحجم تقديره لنقد الآخرين يقع في مستوى لا يؤثر في تقديره لذاته، أما غير الواثق فيواجه النقد برد فعل متشنج وبصوت مرتفع غالباً، حيث يتجه إلى أن هذا النقد موجه لذاته، ومن ثم يستنفر كل طاقاته؛ للدفاع عن نفسه ونتيجة للألم الذي يسببه النقد للشخص ذي التقدير المنخفض للذات فإنه يطور إستراتيجيات لمواجهة، من أهمها التحاشي كتشبه الذات منخفضة القيمة الإصعب الجريح التي نجنيها الأشياء الحارة أو السوائل الحامضة.

٢. النزعة الكمالية:

وهي السعي الحثيث للكمال في كل عمل وإغلاق جميع منافذ الأخطاء، ومعلوم أن مثل هذا السعي عسير المنال، ومن ثم يجرم غير الواثقين أنفسهم والمجتمع من أعمال كثيرة لم يتمكنوا من إخراجها نتيجة سعيهم دون كلل لتحقيق الكمال، ومن المتعارف عليه أنه كلما اقترب الإنسان من الكمال التام لإنجاز مهمة أو عمل ما، احتاج إلى موارد هائلة من الوقت والمعلومات والمصادر التي قد تقف عائقاً في النهاية أمام إخراج العمل إلى حيز النور.

٣. قائمة الواجبات:

يمطر غير الواثقين أنفسهم بقائمة لا ضرورة لها من الواجبات تجاه أشخاص وقضايا قد لا يكونون معنيين بها، وتهدر طاقتهم، ويفقدون متعة الحياة وثارها اليانعة نتيجة هذه المعتقدات النفسية المشوهة.

٤. طلب احتياجات الإنسان المشروعة:

يؤكد الواثقون على طلباتهم واحتياجاتهم بشكل هادئ وواضح دون أن يكون لذلك قصور على من يشاركونهم العمل أو المهمة، في حين يكتفون غير الواثقين باحتياجاتهم حتى يصلوا إلى درجة الانفعال، ويهاجموا شريكهم في القرار. والأمثلة على ذلك كثيرة، بعضها بسيط جداً مثل درجة حرارة المكيف في غرفة يشترك فيها أكثر من إنسان وصولاً إلى القرارات الكبيرة التي تخص علاقات عمل أو تجارة.

إن مسؤولية بناء تقدير الذات تقع بالدرجة الأولى على عاتق الآباء والأمهات وأي إنسان له سلطة على الطرف المعني، فنشوء الطفل في بيت يغمره الحب والعطف وإحاطته بحب غير مشروط لا يرتبط هذا الحب بالسلوك ونتائج الأداء ستقود في الغالب إلى بناء تقدير ذات مرتفع، أما المهاجمة المستمرة للطفل من أبيه أو أمه أو مدرسته وتوجيه اللوم والتجريح أو وصفه بصفات بشعة، فغالباً ما يؤدي إلى استنزاف كبير لتقدير الإنسان لذاته.

وضع العالم النفسي «أوجين ساجان» مصطلح «الناقد المرضي»^(١) لوصف ذلك الصوت الداخلي السلبي الذي يهاجم تقدير الإنسان لذاته، ويتحالف هذا الصوت مع الناقد الخارجي لمهاجمة الإنسان وتفسير كل كلمة أو حركة أو تصرف بأسوأ احتمال ممكن، وقد أوضح هذا العالم وغيره، حقيقة الحوار الداخلي الذي يديره هذا الناقد عند الأشخاص الذين يعانون تقديراً منخفضاً للذات.

ويعد «الدكتور ماثيو ماكي» القدرة على التعرف إلى هذا الناقد الداخلي وكشف ستره من أهم مرتكزات الشفاء من الحساسية للنقد.

(١) انظر: تقدير الذات، الطبعة الثالثة.

وقد وصف الدكتور ماكي قدرات هذا الناقد وتغلله داخل منظومة التفكير وأسلحته التي يستعملها، وعندما يتدبر الإنسان الأوصاف التي يطلقها المعالجون النفسيون وعلماء النفس على الناقد المرضي، سواء أسموه بهذا الاسم أو باسم آخر، مثل الحوار الداخلي، فإنه في الواقع يتطابق إلى حد كبير مع وسوسة الشيطان المفهومة في تربيتنا الإسلامية، وهذا يعني أن المؤمن السليم لديه سلاح قوي جداً لمواجهة هذا الناقد بوصفه جزءاً من وسوسة إبليس يستطيع أن يتحرز منها عن طريقين:

- ١ - مواجهة هذا الناقد أو الموسوس بها أتاحته الأبحاث النفسية الحديثة من وسائل مساعدة لشفاء النفس الإنسانية من مثل هذا الحوار المضر.
- ٢ - التعلق بمسبب الأسباب سبحانه وتعالى واللجوء إليه والاستعاذة به وفق الأوراد والآيات الكريمة الواردة في هذا الباب.

الخلاصة:

شغل موضوع تقدير الذات حيزاً كبيراً في مباحث علم النفس، وبخاصة عند المعالجين النفسيين، وطوروا كثيراً من الآليات والبرامج وحلقات التدريب التي تساعد على بناء تقدير ذات مرتفع، أما نحن بوصفنا مؤمنين ومسلمين فنجزم بأن البناء الأهم لتقدير الذات والثقة بالنفس يركز بشكل أساسي على درجة إيمان الإنسان بربه - عز وجل - وأنه إن استطاع أن يبني إيمانياً راسخاً، ويصونه باستمرار فسيتمتع بثمرات الثقة والأمن النفسي وعكس ذلك صحيح، ولا يتنافى ذلك مع ما يبذله الإنسان من أسباب تربوية تساعد على تحقيق تقدير ذات مرتفع بطاقة وحيوية لمواجهة تكاليف الحياة.

المنطق

إذا سمعت من يقول: إن المستشفى الفلاني «مجزرة» مستدلاً بعدم نجاح عملية جراحية أجريت لأحد أقاربه، أو حدوث وفاة غير متوقعة لأحد المنومين بالمستشفى فهناك احتمال كبير أن يكون هذا الشخص ضحية برمجة ذهنية تتبع المنطق القديم.

وعندما يُسَرَّ شخص بشكل وثوقي لتعيين رجل بلغ «السبعين» في وظيفة كبيرة؛ لأنه نجح وهو في الأربعين في مسؤولية أخرى، فقد يكون هذا السرور من مخرجات المنطق القديم.

وإذا لم تستطع فهم كون أحد «الأتقياء» ممن اشتهروا بالورع والتمسك بالشريعة يمارس مداينات ربوية فربما يقدم لك المنطق القديم بعض التعليل.

اتهامات خطيرة للمنطق القديم! أليس كذلك؟

ما المنطق القديم؟ وهل هناك منطق حديث؟ بل ما المنطق أصلاً؟

كل ما سنحاول فعله في الصفحات القليلة المقبلة هو إثارة مجموعة من القضايا حول مسؤولية المنطق القديم عن انحرافات التفكير وأخطاء الأحكام، ومن ثم السلوكيات.

أرجو أن يتحمل القارئ الكريم رحلتنا القصيرة مع المنطق، فلعل المعرفة المكتسبة من هذه الرحلة تستحق الصبر.

كلمة منطق في العربية ترجمة لكلمة يونانية تعني عقل، ويقدم الدكتور عبدالرحمن بدوي في موسوعته الفلسفية تعريفات عدّة للمنطق أو ضحها من وجهة نظري هو

تعريف «إيمانويل كنت»:

«نطلق نحن كلمة منطق **logic** على علم القوانين الضرورية للذهن والعقل بوجه عام».

وتعرف الموسوعة العربية العالمية، المنطق بأنه: «فرع من فروع الفلسفة يعنى بقواعد التفكير السليم».

ويعرف الدكتور زكي نجيب محمود المنطق بأنه: «استخراج للصور الشكلية التي نظن أن تفكيرنا العلمي يسير على نهجها».

وقبل سبعة قرون عرف ابن خلدون المنطق في مقدمته بأنه: «قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفية للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات».

هناك اتفاق بين مؤرخي العلوم على أن المنطق القديم قد بدأ مع الفيلسوف اليوناني أرسطو، ويعتقد هؤلاء المؤرخون أن التفكير البشري قبل الحضارة الإغريقية كان يسير بطريقة فوضوية ومعظمه يستند إلى الخرافة والأساطير.

ويرى بعض علماء الإدراك في العصر الحاضر أن المنطق ذو قيمة محورية لفهم عمل العقل وطرق الإدراك^(١).

وقد عرف أرسطو في أدبيات الحضارة الإسلامية بالمعلم الأول، ربما بسبب كونه أول من ابتدع علم المنطق.

يقوم المنطق الأرسطي في أبسط صوره وأكثرها أثراً على القياس الذي يتكون من مقدمتين ونتيجة:

كل إنسان فان	مقدمة كبرى
سعد إنسان	مقدمة صغرى
إذاً، سعد فان	نتيجة «منطقية»

ثم تصبح النتيجة مقدّمة لقياس آخر في سلسلة من المقدمات أو استنباط النتائج ولذلك يسمّى هذا المنطق المنطق الاستنباطي.

ويطلق عليه أحياناً المنطق الصوري نسبة إلى الصورة؛ لأنه يهتم بالشكل (الصورة) ولا يسأل عن المضمون، وهو ينسجم مع الحالة الفكرية التي كانت عليها أئمتنا من الاهتمام بالعقل المجرد والتأمل والترفع عن إجراء التجارب أو البحث العلمي. وثق بهذا المنطق كثير من فلاسفة الإسلام، واستخدمه المتكلمون للدفاع عن معتقداتهم وإثبات بطلان معتقدات خصومهم.

وقد تعرض هذا المنطق لمواجهات كبرى في حضارتنا الإسلامية كان بطلها الأول الإمام أبو حامد الغزالي، ثم جاء بعده شيخ الإسلام ابن تيمية ليضع كتاباً في نقض المنطق من جذوره، وبعده ابن خلدون الذي وضع اللبنة في طريق بناء منطق جديد، وفي العصر الحديث توجه عالم الاجتماع العراقي الدكتور علي الوردي إلى كشف عورات هذا المنطق في كتب عدّة أهمها كتابه منطق ابن خلدون، الذي سنقتبس منه كثيراً لتوضيح مبادئ المنطق الأرسطي، ومنها يتضح مسؤوليته عن انحرافات وتشوهات تفكيرنا حتى الوقت الراهن.

يرى الدكتور علي الوردي أن المنطق الأرسطي يقوم على ثلاثة مبادئ، هي:

١. مبدأ العقلانية.

٢. مبدأ السببية.

٣. مبدأ الماهية.

وباختصار، فمبدأ العقلانية يعني الاعتماد المطلق على الكليات العقلية في الوصول إلى الحقيقة وعدم الثقة بالمحسوسات واعتبارها مضللة، ومعروف عن فلاسفة اليونان تقديس العقل والشك في الحواس وازدراء العمل التجريبي.

أما السببية فتقول: إن جميع حوادث الكون تخضع لقانون صارم هو تعاقب السبب والنتيجة أو العلة والمعلول، فالحوادث (بحسب عبارة الدكتور علي الوردي) وفق هذا المنطق لا تقع اعتباطاً أو من جراء إرادة واعية^(١).

وعلى الرغم من أن هذا المبدأ يمثل بدهية يقر بها الجميع اليوم، ولكنه قاد بشكله المتطرف إلى عدم التصديق بأي شيء ليس له سبب معروف، وأدى التمسك المرضي به إلى إنكار بعض الخوارق والمعجزات التي أصبحت تدرس الآن بشكل علمي، ولعلكم تذكرون أن الإمام أبا حامد الغزالي، قد أنكر السببية، ونقضها من أصلها، وتبعه في ذلك الفيلسوف البريطاني ديفيد هيوم.

المبدأ الثالث من مبادئ المنطق الأرسطي (بحسب تحليل الدكتور علي الوردي) هو مبدأ الماهية، وهو أكثرها شهرة لدى المتكلمين، ويتضمن هذا المبدأ ثلاثة قوانين يسميها المناطقة قوانين الفكر، وهي:

أ- قانون الذاتية.

ب- قانون عدم التناقض

ج- قانون الوسط المرفوع.

وينص قانون الذاتية على أن الشيء هو هو، فله جوهر لا يتغير بمرور الزمن. والقانون الثاني ينص على أن الشيء لا يجتمع فيه النقيضان، فهو إما حسن وإما قبيح. أما القانون الثالث فينص على أنه لا وسط بين النقيضين، فالشيء لا يمكن أن يكون غير حسن وغير قبيح في الوقت نفسه، وكما يلاحظ القارئ العزيز أن هذه القوانين هي وجوه مختلفة لشيء واحد هو الماهية.

ظل هذا المنطق بمبادئه مسيطراً على الفكر الإنساني قرابة ألفي عام على الرغم من المحاولات الجادة والرائعة لفلاسفة الإسلام العظام ومفكره، أمثال أبي حامد الغزالي وابن تيمية.

(١) راجع: فصل السببية في هذا الكتاب.

وحتى نعرف مدى تغلغه في فكر المتكلمين واهتمام الناس به انظر إلى السؤال الآتي الذي طرحه تلامذة ابن تيمية عليه، وكيف أجاب عنه في الفتاوى:

ما تقول في المنطق؟ وهل من قال: إنه فرض كفاية مصيب أم مخطئ؟

فقد وصل الأمر ببعضهم إلى اعتقاد وجوب تعلمه على فريق من المسلمين بوصفه فرض كفاية.

إذاً، فالمنطق القديم سكوني (تظل فيه الأشياء ساكنة غير متحركة) وثبوتي (لا تتغير في ظلها الأشياء) وصوري (يهتم بالشكل دون المضمون) وحدي (إما / أو) والوسط مرفوع.

باختصار يمكن عدّه منطق المتأملين في الأشكال الرياضية المجردة، ولا يتناسب مع واقع الحياة العملية المتغيرة المتحركة.

امتداداً للمواجهات التي بدأها مفكرو الحضارة الإسلامية وفي بواكير عهد النهضة الأوروبية بدأ الفلاسفة الجدد، يتبرمون من هذا المنطق، ويجاولون تطوير منطق جديد يلائم تطور الحياة ومتطلبات العلوم، ويعتقد مؤرخو العلوم أن الإنجليزي «فرانسيس بيكون» صاحب المذهب التجريبي الاستقرائي و«راموس» البروتستانتي الفرنسي «وليوناردو دافنشي» الفنان الإيطالي هم مؤسسو المنطق الحديث قبل «ديكارت» الفرنسي، ثم «هيجل» الألماني الذي نقض مبدأ الماهية بتطوير نظرية وجود النقيض داخل الشيء والصراع الجدلي بين الشيء ونقيضه في صيرورة مستمرة، ثم جاء الفلاسفة الإنجليز «وايتهد» و«راسل» ليضعوا قواعد المنطق الحديث.

يرى الدكتور زكي نجيب محمود أن أهم الاختلافات بين المنطق الحديث والمنطق القديم هو أن المنطق القديم يتلمس خصائص الأشياء في جواهر أنواعها، أما المنطق الحديث فيتلمس خصائص الأشياء في طرائق بنائها والعلاقات التي تربط أطرافها.

نعود الآن إلى الأمثلة التي استفتحنا بها هذا الباب والالتهامات التي سقناها جزافاً للمنطق القديم، فدعونا نتعرف إلى أسباب هذه الالتهامات. في البداية نحلل النتيجة التي وصل إليها «مصدر الحكم»:

الذي أصدر حكماً بالفشل على المستشفى؛ لأنه أخفق في معالجة مريض أو حصل عنده خطأ طبي أدى إلى الوفاة أغلب الظن أن تفكيره سار على هذا الطريق: المستشفى الذي يخطئ في علاج مريض مستشفى فاشل === (مقدمة كبرى). المستشفى "س" أخطأ في علاج المريض "ع" === (مقدمة صغرى). إذًا، المستشفى "س" فاشل === (نتيجة).

تزرخر مجتمعاتنا ومقار أعمالنا بهذا النوع من المنطق الذي يؤدي إلى تعميمات مجحفة وإلى أحكام حدية بعيدة عن الواقع وغير مفيدة في تصحيح الأوضاع، وكما رأينا في باب (تقدير الذات) كيف تهاجم مثل هذه الأحكام تقدير الإنسان لذاته، وتؤثر على صحته النفسية.

وعلى خلاف المنطق القديم، ففي المنطق الحديث يمكن أن يسير التفكير لمواجهة موضوع المستشفى على هذا النحو:

كم عملية جراحية أجريت في هذا المستشفى؟

كم نسبة نجاح هذه العمليات؟

كم تبلغ النسبة العالمية للنجاح في مستشفيات مماثلة؟

مقارنة بأعوام سابقة، هل ارتفعت نسبة النجاح أم انخفضت؟

ومن ثم يصدر «تقرير» وليس «حكماً» على مثل هذه الهيئة كالاتي:

«بينما ارتفعت نسبة نجاح العمليات في هذا المستشفى بمقدار (ن/%) عن العام الماضي، ولكن أداء المستشفى أقل من متوسط أداء المستشفيات المماثلة في العالم».

لاحظ أنه بدلاً من الوسط المرفوع إما فاشل أو ناجح، طورنا نسبة نجاح مئوية وبدلاً من «الماهية»: هو هو، اعترفنا بوجود تغير في أداء المستشفى مع مرور الزمن، وهكذا فقد استبدلنا بالمنطق القديم منطقاً علمياً حديثاً. لا شك في أن هذا المثال تبسيطي جداً ولكنه يصور حالة ذهنية سائدة ومدمرة، فالمنطق القديم يشجع على إصدار الأحكام، ومن ثم يسبب أذى لمصدر الحكم والمحكوم عليه، سواء كان إنساناً أو مؤسسة، وقد دلت الأبحاث السيكلوجية على الأثر المدمر في إصدار الأحكام وسلوكه بوصفه طريقة حياة.

مثالنا الثاني حول المسؤول أصبح واضحاً، إذ إن الناس غالباً (عندما تسير وفق المنطق القديم) تنظر إلى الأمور نظرة سكونية جامدة وبحسب قوانين الماهية، ففلان هو فلان، في وزارة «س» أو وزارة «ص» وفلان هو فلان. وعمره ثلاثون أو عمره ستون، وفلان هو فلان في ظروف السبعينيات أو التسعينيات، وهكذا.

أما المثال الثالث فدعوني أذكر لكم واقعة شاهدها بنفسني، يحضر أحد الراغبين في الاقتراض (قرضاً غير حسن بالطبع) إلى أحد الدكاكين في السوق، وهو على موعد مع المقرض وبينهما صاحب الدكان، ويتفقان على صفقة مؤجلة واضحة، ثم يتم تغيير شكل التعامل عن طريق وساطة بضاعة موجودة في مخزن قريب تستعمل باستمرار لهذا الغرض وبعد إتمام الاتفاق (الأساس) يخرج طالب القرض لمعاينة البضاعة، ويخرج له صاحب المخزن جزءاً منها للمعاينة (قد تكون أرزاً أو هيلاً أو قهوة) ويجريها المقرض قليلاً في المخزن.

ثم يعود للدكان، ويبيعهها بثمن يقل قليلاً عن ثمن شرائها من المقرض.

صفقة ربوية خالصة بكل مقاصد الربا. ما الذي إذاً جعل أكثر أهل نجد مكانة اجتماعية ودينية يمارسون هذا النوع من التعامل دون تخرج؟

نعلم عن بعض الموسرين المتدينين أنه لو سمع صوت موسيقا لربما بلغ من كدره أن يعاف غداه، وطار النوم من عينيه، ومع ذلك فهو يعود من هذا الدكان قرير العين بعد أن أتم صفقة المداينة الربوية. كيف نفسر ذلك؟

يعتقد كثير من الناس (وفق المنطق القديم) أنك إذا غيرت في الشكل فقد تغير المضمون، وقد يكون هذا بالضبط سبب رضا الناس بهذا الصنف من المداينة، استحداث وساطة سلعة تستعمل باستمرار ودون أدنى احتمال لاستلامها ونقلها والتصرف بها من قبل المقترض مع معرفة سعر بيعها بعد إتمام الصفقة وعدم وجود أي نوع من المخاطرة من المقرض، كلها تضي بأن العملية لا تختلف عن إقراض مالي مباشر، وإذا أمعنت النظر في المقاصد العليا لتحريم الربا سنجد عملية المداينة في «مضمونها» مطابقة لعملية الربا إن لم يكن بها ظلم إضافي بخضم قيمة البضاعة بعد إعادة بيعها لصاحب الدكان.

الممول لا يدخل في أي نوع من المخاطرة، فماله ولد مالا دون عمل على الإطلاق، وصاحب الدكان يشبه البنك في وساطته بين ملاك المال والمحتاجين إليه، ومع ذلك فعندما تم تغيير الشكل بإدخال البضاعة الوسيطة استمرت الأنفس هذا النوع من التعامل، وقرت به الأعين.

أحد أبرز أمثلة الأحكام الحدّية التي تطلقها ذهنية المنطق القديم تلك الآراء التي تصدر أحياناً في سياق نقد الحضارة الغربية، فهي عند بعض الكتاب (ظهر زيفها) كما لو كانت وثيقة أو انكشفت عورتها (كأنها فتاة ليل)، وعند بعضهم الآخر «الحضارة الوحيدة»، وهكذا تختزل عقلية المنطق القديم خمسة قرون من الخير والشر والإنجاز والإخفاق بعبارات حدّية سكونية.

ربما أكون قد حملت المنطق القديم أكثر مما يحتمل، غير أنني أتهمه بصناعة ذهنية حدّية شكلية سكونيه تؤثر بشكل سلبي في طرائق التفكير وإصدار الأحكام.

استدراكات:

أولاً / المنطق القديم ليس شراً محضاً، لكنه في الغالب الأعم يؤدي إلى خلل في الوصول إلى الحقيقة، وأوضح مثال على إمكانية استخدام المنطق القديم في مقولات رائعة، نذكر حديث المصطفى ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، عندما قال: «كل مسكر خمر، وكل خمر حرام» و «ما أسكر قليله، فكثيره حرام»، ففي هذين الحديثين المنطقيين إغلاق جميع أبواب التأويل في شرب قليل الخمر، أو في اعتقاد أن التحريم للكأس الأخيرة المسكرة، وهكذا.

ثانياً / ليس بالضرورة أن تكون الذهنية التي تسير وفق المنطق القديم واعية بالطريق الذي تسير فيه، فقد تكون هذه البرمجة تشكلت وفق بنيتها الثقافية وتربيتها الاجتماعية ومرجعيتها الفكرية، بمعنى أن الغالبية الساحقة ممن ابتلوا باستعمال المنطق القديم للوصول للحقيقة لم يدرسوا المنطق على الإطلاق.

تذكروا مثلاً ذلك السؤال الذي نظنه مداعبة للطفل الذي لم يبلغ سن المدرسة، وهو في غاية الخطورة، حينما نسأل أحد الأطفال: أيها أحب إليك أمك أم أبوك؟ لا يعبأ كثير منا بأثر مثل هذا السؤال، وهو في الحقيقة يحفر أول سطر في برنامج ذهني لهذا الطفل لتشكيل تفكير وفق المنطق القديم «إما / أو»، بنزعه الحدّية المتطرفة.

ثالثاً / منذ منتصف القرن الميلادي الماضي، وبعد أن طورت آليات وبدائل المنطق الحديث الذي يقوم على العلاقات بالدرجة الأولى، ويؤمن بالحركة والصورورة، شرعت مدارس التعليم العام تدرس هذا المنطق تحت اسم (الرياضيات الحديثة) ودخلت إلى المدارس السعودية في نهاية التسعينيات الهجرية، ونأمل أن تسهم في تشكيل ذهنية حديثة.

رابعاً / ليس من السهل تحديد الظروف التي جعلت المنطق القديم يهيمن على طريقة التفكير في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، فهذا الأمر يحتاج إلى بحوث كثيرة ودراسات معمقة، ويمكن للقارئ المهتم أن يطلع على مشروع مالك بن نبي أو محمد عابد الجابري. ولعله من المفيد أيضاً الدعوة إلى عقد ندوات متخصصة لتتبع خيوط المنطق القديم في خريطة العقل العربي المعاصر في محاولة جادة لتأسيس بنية صلبة لمنطق أكثر ذكاءً وفاعلية في التعاطي مع الواقع المعقد.

الترف

هناك حملة واضحة في السياق القرآني على الترف، تدبر هذه الآيات:

﴿ حَقَّ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ ﴾ .
 ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ .
 ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ .

وقد وردت كلمة الترف في السياق القرآني ثماني مرات، كلها في سبيل الذم.

ما سر هذا الموقف من الترف والمترفين؟

الترف في اللغة النعم ورغد العيش، والمترف هو الشخص الذي يبحث

باستمرار عن سهولة العيش وملذات الدنيا.

ما الذي جعل المترفين يواجهون هذا الذم القرآني المستمر؟

هناك في اعتقادي ثلاثة أسباب تجعل المترفين مصدر ضرر كبير للمجتمع:

أولها: مقاومتهم للتغيير.

نتيجة لامتلاكهم دائرة الراحة لدى المترفين، فإنهم يقاومون التغيير أو الحراك

الاجتماعي ومن ثم يجرمون المجتمعات من الإصلاح الذي لا يأتي غالباً إلا بالتغيير،

وأحياناً بتغيير جذري (راديكالي).

الثاني: عدم القدرة على إدراك الحقائق.

يبدو أن الترف الشديد يشوه قدرات الإنسان على إدراك الحقائق، حتى لو لم

تدفعه مصالح شخصية. إن فتاوى بعض المترفين من طلبة العلم (المخلصين بحسب

ما يبدو) وآراء بعض المستشارين المترفين تظهر تشوهاً واضحاً في إدراكهم.

وتاريخ البشرية مليء بحالات كثيرة يعجز المترفون خلالها عن الاقتراب من الحقيقة.

تذكرون الملكة ماري أنطوانيت زوجة لويس السادس عشر ملك فرنسا، عندما سألت عن سبب تجمهر الناس وغضبهم؟ فقيل لها: إنهم لا يجدون خبزاً، فقالت: لم لا يأكلون بسكويتاً؟ أعتقد أن هذه المرأة لم تكن تستهتر بمشاعرهم، أو تسخر منهم، بل كانت تعتقد أن البسكويت متوافر لكل الناس.

الثالث: استنزاف الموارد.

ثالث هذه الأسباب اقتصادي بامتياز، وذلك أن احتياجات الترف (من سلع وخدمات) مرتفعة التكلفة جداً، إن معطفاً ثميناً من فراء أحد الحيوانات يستنزف من الطاقات البشرية والموارد الطبيعية ما يكفي لصناعة عشرات المعاطف العادية، وثنمه في السوق يعكس هذه الحقيقة، وإن ثمن علبة من الكافيار لا تتجاوز حجم علبة الزبادي يكفي لإطعام مئة عائلة وجبة جيدة.

عندما يسافر أحد في رحلة دولية بالدرجة الأولى يشاهد طوفاناً من الترف البشري، وأعتقد أن تكلفة مسافر واحد بالدرجة الأولى الآن تنقل خمسة ركاب في الرحلات المخفضة.

الضحية

في اعتقادي أن ذهنية «الضحية» مسؤولة عن نسبة كبيرة من إخفاقات الأفراد والمجتمعات، بل حتى الأمم في الوصول إلى أهدافها، عقلية الضحية هي برمجة ذهنية توجه عقل صاحبها إلى البحث عن معوقات لعدم إنجاز عمل ما أو مبررات، عندما يحصل إخفاق.

عندما يتطلب الموقف قيام أحد الأشخاص بعمل مهم ينقسم الناس إلى قسمين رئيسين (مع خليط من كلا القسمين):

الأول: يوجه قدراته وملكاته لإنجاز العمل المطلوب وتدبير الإمكانيات اللازمة لذلك، وليس في ذهنه شيء آخر غير تنفيذ العمل. ومن ثم، فإن لدينا شخصاً يبحث عن النجاح.

الثاني: يوجه قدراته وملكاته لإيجاد مبررات تعترض التنفيذ، وتخلي مسؤوليته أمام نفسه بالدرجة الأولى، ثم أمام الناس. وهناك تكون إزاء شخص يفتش عن الفشل.

وعند حصول مشكلة أو مصيبة ينقسم الناس أيضاً إلى القسمين أنفسهما:

الأول: يتصرف، وكأنه المسيطر على الموقف ومسؤول عن إدارة مصطلحه وشؤون حياته، ولا يهيمه إخفاقات الآخرين أو تقصيرهم في القيام بواجباتهم أو خطئهم في حقه أو قسوة الظروف، ويبدع حلولاً ومواقف تحقق الحد الأعلى الممكن لمصالحه بحسب ما يتوافر له من موارد. أي إنه يحمل نفسه قدراً كبيراً من المسؤولية.

الثاني: يتجه إلى لوم الآخرين أو الظروف، ويشعر بأنه ضحية لأخطاء لم يتسبب فيها أو لعوامل لا قدرة له على تغييرها، وتبدأ ذهنيته بإنتاج مبررات تحقق له راحة نفسية دون القيام بأي عمل.

عندما تتاح للإنسان فرصة الاحتكاك بعدد كبير من الناس على مدى زمن طويل وفي مواقع متعددة سيبدأ بالتعرف إلى هذين النمطين بكل سهولة ومن خلال لقاء قصير تستطيع أن تصنف الشخص الذي أمامك، فيما أنه يعمل وفق عقلية السيطرة أو أنه أسير لعقلية الضحية.

أمضيت أكثر من ثلاثين عاماً في قطاع البلديات وفي خمس مواقع مختلفة، وفي أكثر من منطقة جغرافية، وفرض علي هذا العمل خلطة كبيرة مع عدد هائل من الناس على مختلف مستوياتهم وتأهيلهم العلمي وبيئاتهم التي نشؤوا فيها، وأكاد أجزم أن عقلية الضحية أحد أهم الأمراض المهيمنة على ذهنية الفرد والعقل الجمعي في بيئتنا. عندما يتعذر قبول طالب في إحدى الجامعات، تتشكل ذهنية والده على النحو الآتي:

القبول يحتاج إلى واسطة، ونحن لا نعرف أحداً في هذه الجامعة.

اختبارات القبول ليس لها علاقة بقدرات الطلاب.

يوم اختبار القبول كان ابني مرهقاً نتيجة السفر والسهر.

وهكذا تتفتق ذهنية الضحية عن عدد غير محدود من الأسباب دون أن تجرؤ على ملامسة سبب واحد، وهو أن قدرات الابن لا تؤهله حقاً لدخول الجامعة.

أما عقلية السيطرة فتواجه الحدث على النحو الآتي:

شيء جيد أن يكون هناك اختبار للقبول؛ حتى لا يضيع الطالب وقتاً في جامعة لا تؤهله قدراته للتخرج فيها.

هناك تخصصات في جامعات أخرى تناسب ابني، ومن المهم دراسة الأمر معه للتوجه إلى أحد هذه الأقسام فوراً.

قدرات ابني لا تؤهله لدخول هذه الجامعة.

إن مهارة التمييز بين الشخصية من النوع الأول والنوع الثاني حاسمة لأي قائد، وفي مجتمعاتنا العربية ونتيجة لظروف يصعب شرحها في هذا السياق تكاد عقلية الضحية تستأثر بغالبية الناس.

من خلال ملاحظات شخصية لعدد كبير من القيادات الناجحة في القطاع العام والخاص أكاد أجزم أن أحد أهم القواسم المشتركة بينهم هو إحساسهم التلقائي (من اللاواعي) بمسؤوليتهم عما حدث لهم، وقدرتهم على إحداث تغيير.

وهنا يأتي دور القائد الكفء لاكتشاف عقليات السيطرة النادرة ليرمي بها في المواجهات التنفيذية التي لا تستفيد من العقليات التحليلية التبريرية.

كيف تنشأ عقلية الضحية؟

يعتقد كثير من علماء النفس أن المسألة تبدأ من وقت الطفولة المبكرة، حيث يبدأ المولود بالبكاء ليستجاب لطلباته، ويكبر قليلاً، فيجرب هذه المسألة، فإن وجد والديه سريع الاستجابة، ويحققان رغباته نشأ على تقمص دور الضحية؛ لينال ما يريد.

كيف تعرف إذا ما كنت تفكر بعقلية الضحية أم لا؟

إذا كنت ممن ينظر إلى العالم بعين التهكم، ويواجه المشكلات والقضايا بطريقة عدائية، ويختار النظر إلى الجانب السلبي من أي موقف، وينقد الآخرين، ويبخس جهودهم، ويشكو باستمرار دون إعطاء حلول، ويلقي باللوم على الآخرين، عندما تظهر مشكلات، فهناك احتمال كبير أن تكون ضحية لعقلية الضحية والحل يكمن في أن تعرف هذه المشكلة، وتشرع تعالجها، هناك كثير من الكتب والبرامج التي تساعدك على ذلك.

المقابل لعقلية الضحية هو عقلية السيطرة، وهذه بعض القواعد المهمة التي وضعها الدكتور (جاري غابل) في كتابه (السيطرة الشخصية):

قاعدة السيطرة (١):

إذا كنت تقبل فكرة أنك أنت الذي تصنع واقعك الخاص فبمقدورك أن تغير هذا الواقع.

قاعدة السيطرة (٢):

ابتكر رؤية للواقع أكثر مرونة من خلال عدم استبعاد المعلومات التي لا تريد أن تراها.

قاعدة السيطرة (٣):

التحول إلى التفكير القائم على أساس السيطرة الشخصية يتطلب منك التخلص من شعور الغضب تجاه الآخرين.

قاعدة السيطرة (٤):

سيستمر العالم من حولك في التغير شئت أم أبيت، تستطيع أن تحارب هذا التغير، أو تجعله مطيتك، وتستمتع به.

فكلما استبدلت بفكرة سلبية بديلاً إيجابياً سوف تشعر بأثر إيجابي في مستقبلك. أسوأ ما في عقلية الضحية هو الغم المستمر نتيجة الشعور بما يمكن أن نسميه الغبن، وهو شعور ملازم لكل الضحايا، سواء في علاقاتهم الإنسانية أو تعاملاتهم التجارية، إن خسارة الفرد والمجتمع، ومن ثم الوطن أو الأمة من سيادة التفكير بطريقة الضحية فادحة جداً.

إذا كنت غير ناجح في حياتك العملية فأنت ضحية للفساد الإداري.